بسم الله الرحمن الرحيم

إِتْقَانُ الْعَمَلِ وَاجِبٌ دِينِيٌّ وَحَضَارِيٌّ 13 ذُو الْقِعْدَةِ 1447هـ

اتَّقُوا اللهَ عِبَادَ اللهِ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾.

عِبَادَ اللهِ: لَقَدْ خَلَقَ اللهُ هَذَا الْكَوْنَ بِجَمَالٍ وَجَلَالٍ، وَإِتْقَانٍ وَكَمَالٍ، بِزِينَةٍ تَسْتَرْعِي النَّظَرَ، وَجَمَالٍ يَسْتَدْعِي التَّفَكُّرَ، لَا تَنْقَضِي عَجَائِبُهُ، وَلَا تَنْتَهِي أَسْرَارُهُ، قَالَ جَلَّ وَعَزَّ: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَىٰ السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ﴾، فَالْكَوْنُ بِسَمَائِهِ وَأَرْضِهِ، وَكَوَاكِبِهِ وَنُجُومِهِ، وَنَهَارِهِ وَلَيْلِهِ، وَشَمْسِهِ وَقَمَرِهِ، آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ عَلَىٰ إِتْقَانِ الْخَالِقِ جَلَّ وَعَلَا، ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾، وَكُلَّمَا تَدَبَّرْنَا آثَارَ خَلْقِهِ نَرَىٰ غَايَةَ الْإِتْقَانِ، وَصَدَقَ اللهُ: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾، فَأَحْسَنَ سُبْحَانَهُ خَلْقَهُ، وَجَوَّدَهُ وَأَتْقَنَهُ، وَجَعَلَهُ بَدِيعًا فِي هَيْئَتِهِ وَوَظِيفَتِهِ، وَأَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ، بِمَا تَقْتَضِيهِ حِكْمَةُ الْعَلِيِّ الْأَعْلَىٰ، فَـ ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾، وَكُلُّ ذَلِكَ يَا عِبَادَ اللهِ ظَاهِرُ إِتْقَانِ مَا نَرَاهُ، فَكَيْفَ بِبَاطِنِ مَا لَا نَرَاهُ، مِنْ عَجَائِبِ صَنْعَةِ الْخَالِقِ جَلَّ فِي عُلَاهُ، ﴿وَتَرَىٰ الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾، وَمَا يَزَالُ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ يَكْشِفُ لِلنَّاسِ شَيْئًا مِنْ أَسْرَارِ هَذَا الْكَوْنِ وَآيَاتِهِ، وَبَاهِرِ صَنْعَتِهِ وَإِتْقَانِهِ، قَالَ عَزَّ شَأْنُهُ: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: لَمَّا كَانَ أَقْرَبُ الْأَشْيَاءِ إِلَىٰ الْإِنْسَانِ نَفْسَهُ، دَعَاهُ خَالِقُهُ وَبَارِئُهُ، وَمُصَوِّرُهُ وَفَاطِرُهُ إِلَىٰ التَّبَصُّرِ وَالتَّفَكُّرِ فِي نَفْسِهِ؛ لِيَجِدَ آثَارَ التَّدْبِيرِ فِيهِ قَائِمَاتٍ، وَأَدِلَّةَ إِتْقَانِ خَالِقِهِ نَاطِقَاتٍ، شَاهِدَةً لِمُدَبِّرِهِ، دَالَّةً عَلَيْهِ، مُرْشِدَةً إِلَيْهِ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾، فَبَعْدَ أَنْ كَانَ الْإِنْسَانُ لَا شَيْءَ يُذْكَرُ، أَصْبَحَ خَلْقًا مُتْقَنًا، إِبْدَاعًا وَجَمَالًا، ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾.

عِبَادَ اللهِ: إِذَا كَانَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قَدْ أَتْقَنَ خَلْقَهُ غَايَةَ الْإِتْقَانِ، وَأَحْكَمَهُ غَايَةَ الْإِحْكَامِ، فَلَأَنْ تَكُونَ شَرِيعَتُهُ فِي غَايَةِ الْإِتْقَانِ وَالْإِحْكَامِ أَوْلَىٰ وَأَحْرَىٰ، فَالْقُرْآنُ وَالسُّنَّةُ كُلٌّ مِنْهُمَا مُحْكَمٌ مُتْقَنٌ.

وَالْإِتْقَانُ هُوَ عَمَلُ الشَّيْءِ عَلَىٰ أَكْمَلِ وَجْهٍ وَأَحْسَنِهِ، وَقَدْ أَمَرَ اللهُ سُبْحَانَهُ عِبَادَهُ بِإِتْقَانِ الْعَمَلِ، قَالَ الْعَلَّامَةُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ فِي كِتَابِهِ «عُدَةِ الصَّابِرِينَ وَذَخِيرَةِ الشَّاكِرِينَ»: الرَّبُّ تَعَالَىٰ يُحِبُّ أَسْمَاءَهُ وَصِفَاتِهِ، وَيُحِبُّ مُقْتَضَىٰ صِفَاتِهِ، وَظُهُورَ آثَارِهَا فِي الْعَبْدِ، فَإِنَّهُ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ، عَفُوٌّ يُحِبُّ أَهْلَ الْعَفْوِ، كَرِيمٌ يُحِبُّ أَهْلَ الْكَرَمِ، عَلِيمٌ يُحِبُّ أَهْلَ الْعِلْمِ، وِتْرٌ يُحِبُّ أَهْلَ الْوِتْرِ، قَوِيٌّ وَالْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، صَبُورٌ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ، شَكُورٌ يُحِبُّ الشَّاكِرِينَ، وَإِذَا كَانَ سُبْحَانَهُ يُحِبُّ الْمُتَّصِفِينَ بِآثَارِ صِفَاتِهِ فَهُوَ مَعَهُمْ بِحَسَبِ نَصِيبِهِمْ مِنْ هَذَا الِاتِّصَافِ.

إِنَّ أَوَّلَ شَيْءٍ يَسْعَىٰ الْعَبْدُ فِي إِتْقَانِهِ: تَوْحِيدُهُ لِرَبِّهِ جَلَّ جَلَالُهُ، وَإِفْرَادُهُ بِالْعِبَادَةِ؛ فَمِنْ أَجْلِ التَّوْحِيدِ خَلَقَ اللهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ، وَالْجَنَّةَ وَالنَّارَ، وَلِأَجْلِهِ أَرْسَلَ اللهُ رُسُلَهُ، وَأَنْزَلَ كُتُبَهُ، وَهُوَ أَصْلُ الدِّينِ وَأَسَاسُهُ، وَأَوَّلُ أَرْكَانِهِ، وَأَوَّلُ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ فِي كِتَابِهِ، وَهُوَ أَعْلَىٰ شُعَبِ الْإِيمَانِ، وَأَثْقَلُ شَيْءٍ فِي الْمِيزَانِ، وَأَوَّلُ مَا يُسْأَلُ عَنْهُ الْعَبْدُ فِي قَبْرِهِ، وَيَوْمَ حَشْرِهِ وَنَشْرِهِ، وَالْمُوَحِّدُ أَرْجَىٰ مَنْ يَحْظَىٰ بِمَغْفِرَةِ رَبِّهِ وَعَفْوِهِ، أَخْرَجَ التِّرْمِذِيُّ، وَحَسَّنَهُ الْعَلَّامَةُ الْأَلْبَانِيُّ رَحِمَهُ اللهُ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ:

سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: يَا ابْنَ آدَمَ، إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَىٰ مَا كَانَ فِيكَ وَلَا أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ، لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ، ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ وَلَا أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ، إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطَايَا، ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا لَأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً». فَمَنْ حَقَّقَ التَّوْحِيدَ فَازَ بِجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ، وَمَنْ أَخَلَّ بِتَوْحِيدِهِ فَأَشْرَكَ مَعَ اللهِ غَيْرَهُ فَلَنْ تُقْبَلَ مِنْهُ عِبَادَتُهُ؛ فَاللهُ غَنِيٌّ عَزِيزٌ، لَا يَقْبَلُ عَمَلًا لَمْ يُرَدْ بِهِ وَجْهَهُ، أَخْرَجَ مُسْلِمٌ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: أَنَا أَغْنَىٰ الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ».

عِبَادَ اللهِ: إِنَّ أَوْلَىٰ الْأَعْمَالِ بِالْإِتْقَانِ بَعْدَ التَّوْحِيدِ: مَا افْتَرَضَهُ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَىٰ عِبَادِهِ، وَمِنْ ذَلِكَ: **الْوُضُوءُ: فَالْوُضُوءُ رَغَّبَ النَّبِيُّ ﷺ فِي إِتْقَانِهِ، حَتَّىٰ فِي الْمَكَارِهِ مِنْ بَرْدٍ وَنَحْوِهِ،** أَخْرَجَ مُسْلِمٌ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: رَجَعْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنْ مَكَّةَ إِلَىٰ الْمَدِينَةِ، حَتَّىٰ إِذَا كُنَّا بِمَاءٍ بِالطَّرِيقِ تَعَجَّلَ قَوْمٌ عِنْدَ الْعَصْرِ، فَتَوَضَّئُوا وَهُمْ عِجَالٌ، فَانْتَهَيْنَا إِلَيْهِمْ وَأَعْقَابُهُمْ تَلُوحُ لَمْ يَمَسَّهَا الْمَاءُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «وَيْلٌ لِلْأَعْقَابِ مِنَ النَّارِ، أَسْبِغُوا الْوُضُوءَ».

وَالصَّلَاةُ هِيَ أَعْظَمُ الشَّعَائِرِ بَعْدَ التَّوْحِيدِ، وَقَدْ جَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ مَنْ أَخَلَّ بِأَرْكَانِهَا كَالَّذِي لَمْ يُصَلِّهَا، فَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ دَخَلَ الْمَسْجِدَ، فَدَخَلَ رَجُلٌ فَصَلَّىٰ، ثُمَّ جَاءَ فَسَلَّمَ عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَرَدَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ السَّلَامَ، قَالَ: «ارْجِعْ فَصَلِّ فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ».

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: لَقَدْ تَرَبَّىٰ الصَّحَابَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ عَلَىٰ الْإِتْقَانِ، فَكَانَ أَحَدُهُمْ إِذَا حَفِظَ عَشْرَ آيَاتٍ مِنَ الْقُرْآنِ لَمْ يَنْتَقِلْ لِغَيْرِهَا حَتَّىٰ يُتْقِنَهَا فِقْهًا وَعَمَلًا، أَخْرَجَ الطَّبَرِيُّ فِي «تَفْسِيرِهِ»، عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ الرَّجُلُ مِنَّا إِذَا تَعَلَّمَ عَشْرَ آيَاتٍ لَمْ يُجَاوِزْهُنَّ حَتَّىٰ يَعْرِفَ مَعَانِيَهُنَّ، وَالْعَمَلَ بِهِنَّ».

عِبَادَ اللهِ: إِنَّ الْإِتْقَانَ فِي الشَّرِيعَةِ لَيْسَ خَاصًّا بِالشَّرَائِعِ التَّعَبُّدِيَّةِ فَحَسْبُ، وَإِنَّمَا حَتَّىٰ فِي الْأَعْمَالِ الدُّنْيَوِيَّةِ؛ لِأَنَّهُ مَنْهَجُ حَيَاةِ الْأَلِبَّاءِ، وَسِمَةُ رُقِيِّ النُّبَهَاءِ؛ وَلِذَا نَجِدُ النَّبِيَّ ﷺ عَنِيَ بِالْإِتْقَانِ فِي كُلِّ شَيْءٍ، أَخْرَجَ مُسْلِمٌ عَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: ثِنْتَانِ حَفِظْتُهُمَا عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، قَالَ: «إِنَّ اللهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ، فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ، وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذِّبْحَ، وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ، فَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ».

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: لَقَدْ كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُشِيدُ بِالْمُتْقِنِينَ مِنْ أَصْحَابِ الْحِرَفِ، وَيُوكِلُهُمْ إِلَىٰ مَا يُتْقِنُونَهُ مِنْ حِرَفٍ، أَخْرَجَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ، وَحَسَّنَهُ الْعَلَّامَةُ الْأَلْبَانِيُّ رَحِمَهُ اللهُ، عَنْ قَيْسِ بْنِ طَلْقٍ الْحَنَفِيِّ، عَنْ أَبِيهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: جِئْتُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، وَأَصْحَابُهُ يَبْنُونَ الْمَسْجِدَ، قَالَ: فَكَأَنَّهُ لَمْ يُعْجِبْهُ عَمَلُهُمْ، قَالَ: فَأَخَذْتُ الْمِسْحَاةَ، فَخَلَطْتُ بِهَا الطِّينَ، فَكَأَنَّهُ أَعْجَبَهُ أَخْذِي الْمِسْحَاةَ وَعَمَلِي، فَقَالَ: «دَعُوا الْحَنَفِيَّ وَالطِّينَ، فَإِنَّهُ أَضْبَطُكُمْ لِلطِّينِ».

إِنَّ الْحَيَاةَ لَا تَنْمُو وَلَا تَزْدَهِرُ، وَالْأَوْطَانَ لَا تُبْنَىٰ وَلَا تَتَقَدَّمُ بَعْدَ تَوْفِيقِ اللهِ تَعَالَىٰ إِلَّا بِالْإِتْقَانِ، سَوَاءً فِي الْأَعْمَالِ التَّعَبُّدِيَّةِ، أَوِ السُّلُوكِيَّةِ، أَوِ الْمَعَاشِيَّةِ، فَكُلُّ عَمَلٍ يَقُومُ بِهِ الْمُسْلِمُ بِنِيَّةِ الْعِبَادَةِ فَهُوَ مَأْجُورٌ عَلَيْهِ، وَالْإِتْقَانُ هَدَفٌ يَسْمُو بِهِ الْمُسْلِمُ؛ لِيَرْتَقِيَ بِهِ فِي مَرْضَاةِ رَبِّهِ، وَالْإِخْلَاصِ لَهُ، وَكَذَا فِي حَيَاتِهِ الْعَمَلِيَّةِ، فَيَسْعَىٰ لِلتَّفَوُّقِ فِي كُلِّ جَوَانِبِ حَيَاتِهِ؛ لِيَكُونَ الْإِتْقَانُ سِمَةً أَسَاسِيَّةً فِي شَخْصِيَّتِهِ، وَظَاهِرَةً سُلُوكِيَّةً لَهُ، تُلَازِمُ الْمَرْءَ فِي عَطَائِهِ، وَالْمُجْتَمَعَ فِي تَفَاعُلِهِ وَإِنْتَاجِهِ.